12

وجهة نظر معلّمة

ليس لدينا حل

هولي هولاند

شعرتْ سو كليفتون، المعلّمة في مدرسة ابتدائية، بقلق شديد نتيجة التغيُّر الذي أتىٰ به قانون الإِصلاح التربويّ عام 1990. وأَطْلَعتْ جميعَ من حولها علىٰ ذلك.

لقد كَتَبتْ سو إِلىٰ جميع مشرِّعي الولاية التابعين للجان التربويّة في مجلس النوَّاب والشيوخ. وجابهت المندوب التربويّ توماس سي. بوسين وتكلمت جهاراً معبِّرة عن رأيها في اجتماع عام في جمهور مقاطعتها، هيكمان. وتقاسمت هجومها مع زوجها، وأَطفالها وعائلات أُخرىٰ. وبعد أن حضرتْ جلسة إِعلامية برعاية «لجنة بريتشارد للتفوُّق التربويّ» أخبرت الحضور أنها لا تشعر بالتشجيع لدعم الإِصلاحات في كنتكي.

«أخبرتْهُم، لن أكون زعيمة من يهتفون لقانون الإِصلاح. فأنا لا أؤمن به».

بعد خمس سنوات، دون أن تصبح أقل انفعالاً في وجهة نظرها المتعلقة بإِصلاحات الولاية، تكلمت جهاراً مرة أُخرىٰ في محيط عام. وكمعلّمة ذات ذريعة خاصة وتعمل في مدارس في ثلاثة مقاطعات من غرب كنتكي، دُعِيَتْ لتتكلّم في نادي فولتون روتاري حول التغيير في الصفوف التي كانت قد لاحظته. وهذه المرة، علىٰ كل حال، لم تطلب كليفتون مخالفة القانون، وإِنما طلبت الغفران والسماح.

«لقد أخبرتُهم أن الأمر يشبه وضع المرء في الجمعية»، قالت، «وإِنني شاهدت النور، وفي أي وقت تستطيع أن تشاهد الطلاَّب ينجزون... وينتقلون إِلىٰ تلك النواحي الأَكاديمية التي تخلصنا منها نوعاً ما قبل.... إِذاً، كان عليك أن تقبل.

الآن، وكمديرة برامج الولاية والبرامج الاتحادية للمدارس العامة في مقاطعة هيكمان، تنظر كليفتون إِلىٰ العشر سنوات الماضية وترىٰ الخوف والغطرسة اللذين منعاها والعديد من زملائها من قبول خطة كنتكي الجذرية لتحسين التربية.

«إِنني واحدة من أولئك الناس.... الذين يحبون الفوز والانتصار»، قالت. «أحب أن أكون علىٰ صواب، ولكن إِذا أدركت أن الأمر سوف ينجح، عندئذ سأتراجع وأقول «نعم، لقد كنت مخطئة»».

لقد اعترفت كليفتون أن خبراتها حول الإِصلاح المدرسي قد

عَدَّلت من وجهة نظرها. «لقد تغيرتُ»، قالت: لقد كبرت، وأنت تعرف، أنني كنت سعيدة حقاً. أحياناً أنظر إلىٰ نفسي في الماضي، وأضحك لأنني أعتقد، «لقد كنتِ حقاً مغرورة عندما اعتقدتِ أَنه كان لديك جميع الحلول».

كانت ثقة المعلّمين بالنفس أول أسباب الإصلاحات التربويّة، ولم تكن كليفتون حالة استثنائية. وبما أن المربين كانوا يُعَلِّمون غالباً بالأسلوب الذي تَعَلَّموه في المدرسة، لذلك تنوّع نمط التعليم في معظم غرف الصفوف من سنة لأُخرىٰ. كان المعلّمون والطلَّاب يتبعون برامج محدَّدة، ويُعلِّمون من خلال كتب مدرسية موحَّدة، ويمكثون عموماً في عالم معزول مكوَّن من حجرة الصف. وكانت تؤكد تعليمات الولاية علىٰ «الوقت الضروري للواجب» وتطلب من المعلّم أن يمضي عدداً محدداً من الدقائق ـ لا أقل ولا أكثر ـ من أجل كل موضوع كل يوم. وكشخص مثل كليفتون يتبع قاعدة يضعها لنفسه، كان المخطّط بسيطاً. لقد أعطاها المخطّط إِطاراً للعمل والعزم والتصميم.

لقد هدَّدت الإصلاحات التربويّة في كنتكي سلامة تلك الثقة. لقد حَرَّضَ الإصلاحُ المعلّمين أن يتعاونوا، ويربطوا دروسهم بخبرات الحياة، ويجعلوا إتقان المقرَّر المدرسي هدفاً بدلاً من تغطية سطحية للمقرّر، ويدفعوا الطلَّاب إلىٰ الأمام وفق حاجات التطوير وليس حسب عمرهم. كان علىٰ المعلّمين كذلك أن يُكوِّنوا حكماً أو رأياً حول اكتساب المعرفة والاختبارات، وليس حول الإجابات المذكورة

في دفتر دليل المعلّم الذي يرافق كتبهم المدرسية. ولكي يحدث انتقال أفضل مما هو معتدل أَو ضئيل الجودة، كان علىٰ المعلّمين أن يتوقعوا المزيد من طلاَّبهم ـ وأكثر مما يتوقع بعضهم من بعضهم الآخر.

ظهرت أول التحديات بدءاً من رياض الأَطفال وحتىٰ الصف الثالث حيث طلب نموذج الولاية الجديد من المعلّمين أن يعلموا أَطفالاً من أعمار وقدرات مختلفة ويساعدوهم في معرفة القراءة والكتابة والحساب علىٰ نحو أسرع وعلىٰ مستوىٰ أعمق. ولم يكن علىٰ المدارس أن تشير إِلىٰ الأشكال التقليدية للصف الأول أَو الثاني، وإِنما كان عليها أن تعتبر المدرسة الابتدائية سلسلة يتقدّم من خلالها الأَطفال ـ بغض النظر عن عمرهم ـ حالما يتعلمون مفاهيم أَكاديمية محدَّدة.

في عام 1990، وبعد ست عشرة سنة كمعلّمة تربويّة خاصة، أصبحتْ كليفتون معلّمة في روضة الأَطفال في المدرسة الابتدائية في مقاطعة هيكمان. وخلال السنوات القليلة التي تلت، وبعد أن تبنَّت نموذج المدرسة الابتدائية، قامت كليفتون بتعليم سلسلة من الأَطفال في المدارس الابتدائية. حتىٰ تلك المرحلة تركَّز عملها في روضة الأَطفال، كما قالت، علىٰ تطوير المهارات الاجتماعية للأَطفال البالغين خمس سنوات ـ «وقت القصة، وقت اللعب، الرسم بالأصابع علىٰ ورق رطب، وقت القيلولة» ـ وليس علىٰ التحديات الأَكاديمية الأكثر دقة المذكورة في الإِصلاحات المدرسية.

«كنا ننتقل إلىٰ شيء غريب تماماً بالنسبة لي، وغريب للطلاَّب، وغريب لأولياء الأمور، ولم أكن أرىٰ كيف يمكن أن أعمل بنجاح في هذا المجال». قالت كليفتون. «كنت أريد خطة العمل. كنت أريد كيف يمكن أن أنجز العمل. قد يُظْهِرُ لنا البحث أَنه ملائم. ولكن أرجو أن تبين لي كيف يمكن أن أُعلِّم طفلاً في الخامسة من عمره وطفلاً في الثامنة من عمره وأن أدفعهما إلىٰ الأمام في الوقت نفسه وفي غرفة الصف نفسها وفي اليوم نفسه وفي الساعة نفسها».

سألها بعض الأولياء، كما تذكر، رأيها حول التغيير المقترح. فأخبرتهم أن اقتراحات كنتكي لن تنجح ـ لا يمكن أن تنجح. تذكر كليفتون مرة، وخلال اجتماع إعلامي في بادوكا، وكانت تجلس بجوار امرأة من ولاية أُخرىٰ كانت تتكلم بكثير من الحماسة حول نموذج كنتكي الثوري للإصلاح المدرسي، وقالت المرأة أنها حضرت لتعرف المزيد. «فقلت، «حسناً، ليس لدينا أي حلول»».

في مناسبة أُخرىٰ، قابلت كليفتون المندوب التربويّ، بويسين، وقاسمته قلقها حول خطة «تبدو عظيمة علىٰ الورق» ولكن تحتوي علىٰ العديد من العوائق العملية. وقالت إنها حاولت أن تنصاع للتوصيات ولكنها شعرت، مع ذلك، بالإحباط لأن العمليَّة كانت صعبة للغاية وتتصف بفوضىٰ كبيرة.

«فقال، «حسناً، إن لديك الكثير من الجرأة»، الأمر الذي أغضبني». قالت كليفتون. «لا أريد أن أُعرف كشخص جريء. أريد أن أُعرف كمربية ترعىٰ حاجات الطلاَّب... يبلغ طولي ستة أقدام

وأنا مرتدية حذائي، ولذلك، لم يصفني أحد بكلمة جريئة من قبل. كنت أريد حلولاً، ولم أشعر أنني حصلت علىٰ أي حل».

بالرغم من تحفظاتها، حاولت كليفتون أن تتكيّف مع التغيير. لقد انْتُخِبتْ لتخدم أول مجلس ابتدائي في مقاطعة هيكمان؛ نموذج يُحتذىٰ به، شكَّله مصلحو الولاية كي يعطي المؤسَّسات المحلية المزيد من المراقبة للميزانية والقرارات المتعلِّقة بالمناهج. ينبغي أن يشتمل كل مجلس علىٰ اثنين من أولياء الأمور، وثلاثة معلّمين، ومدير ـ أَو يتبنىٰ النسبة نفسها من كل فئة إِذا قرَّرت المدرسة أن يكون لها مجموعة أكبر. وكان أَول أمر قام به مجلس مقاطعة هيكمان توظيف مدير جديد. وبعد سنة، عندما استقال ذلك الإِداري، وظف المجلس مديراً آخر. وقد ثبتَ أن إِحداث هذه الخيارات كان تحدياً للمعلّمين الذين لم يكونوا معتادين علىٰ الخلافات العامة، قالت كليفتون. ومع ذلك، كان يروق لها العمل مع أعضاء المجلس الآخرين، وكانت تقدِّر إِخلاصهم للعمل، فقد تحمَّلوا العديد من الاجتماعات الطويلة والمكالمات التلفونية في وقت متأخر من الليل، وذلك استجابة لجميع التوصيات الجديدة للولاية. لقد ساعدتها الخدمة في المجلس كذلك في فهم الطلبات المتعارضة ضمن المدرسة وتقدير صعوبة جعل الجميع يركِّزون علىٰ الأَطفال نفسها.

أذكر مديري عندما كتب عن تقدير أدائي يوماً وقال «إِن سو كليفتون معلّمة جيدة ونصيرة قوية للطلَّاب، ولكن تحتاج أحياناً أن تنظر إِلىٰ الجانب الآخر من القضية»، قالت كليفتون. «بكلمات

أُخرىٰ، كان يحاول أن يشرح لي أَنه يلزم أحياناً أن أنظر من خلال منظور الإداري بدلاً من منظور المعلّم. . . وعندما أصبحت عضو مجلس في الموقع ورأيت أن هنالك في الواقع قضايا من جميع الجهات، علمت أَنه كان علىٰ صواب».

وقالت كليفتون إن من أشق مهام مقاطعة هيكمان إيجاد طريقة لتنفيذ برنامج المدرسة الابتدائية الجديد. ومع أن كنتكي لم تطلب من معلّمي المدرسة الابتدائية أن يتعاملوا مع أطفال من روضة الأَطفال لغاية الصف الثالث في غرفة الصف نفسها، إلاَّ أن الولاية شجعت المعلّمين أن يستعملوا تصنيفاً مرناً للطلاَّب ووسائل بصرية وتطبيقات عمليَّة للمهارات الأساسية. ولسوء الحظ، لقد شكلتْ كنتكي نموذجاً تنظيمياً قبل أن تقدم تفاصيل المنهاج، الأمر الذي أربك المعلّمين الذين كانوا في ذلك الحين يتغلبون علىٰ ترتيب مشوِّش بسبب تغيير برنامج العمل والمسؤوليات الجديدة. لقد حاول معلّمو مقاطعة هيكمان أن يتكيَّفوا، قالت كليفتون. فقد سافروا إلىٰ مناطق مدرسية أُخرىٰ كي يشاهدوا تنفيذ الممارسات المقترحة، ثم عادوا لينقلوا إلىٰ زملائهم ما شاهدوه ويجربوا أساليب جديدة. وقد انتعشت الهمّة بسبب الانتباه الزائد للتطوير المهني. ولكن بالنسبة لكليفتون، جاء أقوىٰ تعزيز للطاقة من مشاهدة الطلاَّب ينجحون في المحيط الجديد للمدرسة الابتدائية.

«وبما أننا بدأنا نجمع الأطراف معاً، وبدأنا نَبْسُط أنفسنا، ونبسُط طلاَّبنا، وبما أنني شاهدت طفلاً في الخامسة بدأ يقرأ، شعرت بالذنب

وسألت نفسي عن عدد الأَطفال الذين لم أقدِّم لهم هذه الفرصة»، قالت. «جاء أحد الأولياء وأخبرني شيئاً عن قانون الإِصلاح التربويّ وقلت له «أنت تعلم أنني كنت مخطئة حقاً تجاه قانون الإِصلاح». فقال، «حسناً، لقد كنتُ حقاً قلقاً لأنني أعرف أنك إِذا كنت معارضة لقانون الإِصلاح، فلن يكون ذلك مفيداً للأَطفال». وقال إِن أَطفاله قد نجحوا في ظله».

إِن رد فعل كهذا يؤكد علىٰ قدرة المعلّمين كأفراد لبناء الإِصلاح التربويّ أَو هدمه في كنتكي أَو أي مكان آخر. ويُظهر بحث علىٰ مستوىٰ الولاية أن المعلّمين هم أول ـ وأحياناً هم فقط ـ مصدر للمعلومات والذين يلجأ إِليهم الأولياء عندما يلاحظون تغييراً في تعليم أَطفالهم. ولذلك، إِن مجال تأثير المعلّمة غير محدود فقط بالطلاَّب الذين في رعايتها، ولكنه يمتد إِلىٰ عائلات الطلاَّب وإِلىٰ الناس الذين تتواصل معهم تلك العائلات.

قالت كليفتون إِنها تدرك الآن أن موقفها السلبي تجاه إِصلاحات كنتكي كان له أثر صاخب علىٰ الجميع. حاولتْ أن تقوم بتعديل موقفها وذلك بالحديث عن تغيير رأيها مع أكبر عدد ممكن من أولياء الأمور.

«لقد شعرتُ حقاً بالأسف لأنني أريد أفضل الأمور للأَطفال، وإِذا خطر لي أنني أوقفت ذلك أَو أَعقته بأي وسيلة، فكنت أتصل بجميع الأولياء الذين يمكن أن أتصل بهم وأخبرهم بذلك».

وكانت مواقف أولادها من أصعب المواقف التي يمكن تغييرها. وقالت كليفتون إن ابنتها، التي تخرّجت من المدرسة الثانوية عام 1994، وابنها، الذي تخرّج عام 1997، تشرَّبا تشاؤمها المبكر، وكانا يرتابان بالتغيير في غرف الصفوف في كنتكي. وكطالبين بمرتبة امتياز كانا معتادَين على النجاح في اختبارات الذاكرة البسيطة، وكانا يغتاظان من الإجابات المفصلة، والتفاسير الكتابية، والتفكير واسع الأفق، وهي الأمور التي بدأ المعلّمون في طلبها بعد صدور قانون الإصلاح في الولاية. وقالت كليفتون إن ابنتها كانت تريد فقط أن «تملأ الفراغات» الموجودة في ورقة العمل بالإجابات الصحيحة «وتنتهي».

«لقد اعتقدتْ أن كل الكتابة المقترحة كانت سخيفة. وما كان غريباً حقاً، بالرغم من ذلك، وبعد عامين من تخرّجها، استمعت مرة إليها متحدِّثة لابننا... طالبه منه «من الأفضل أن تفعل كما يطلبون منك، لأنك لن تصدق ذلك، ولكن عليك في الواقع أن تكتب في الكلية. عليك في الواقع أن تَقْدر أن تخبرهم بما يدور في ذهنك عندما تملأ استمارة طلب وظيفة»».

تعتقد كليفتون أن العديد من سكان كنتكي يتقاسمون شعوراً متشابهاً حول تكافؤ الضدين المتعلق بالإصلاح المدرسي. إنهم يطلبون التحسُّن؛ إنهم يتمنون أن يكون لديهم المزيد من الوقت لإتمام الفعالية. ولذلك، مع أنَّهم يحترمون أهداف التفوّق التربويّ، يسألون ما إذا كان يمكن للاختبارات أن تقيس بدقة نجاح الطلاَّب. ومن أجل ذلك، وبالرغم من شعورها بالفخر بإنجازات الولاية في

العقد الماضي وأملها بالمستقبل، تعرفُ كليفتون كم بقي من العمل الذي ينبغي إنجازه.

«إن ما نفعله عبارة عن تغيير النظام التربويّ بكامله الذي لديك»، هي قالت. «إنها طريقة مختلفة برمتها للنظر من خلالها للتربية والوسيلة التي تدير التربية بها. عندما تأخذ بعين الاعتبار المجالس المبنية على الموقع ومراكز مساعدة الأسر المحتاجة وجميع الأمور التي ظهرت، فإن عشر سنوات فقط فترة قصيرة من الزمن. نحن في التربية غالباً نريد أن نقول، «حسناً، هذه هي المشكلة، وهذا هو الحل للمشكلة»، ثم نتابع عملنا. ولكننا لم نستطع أن نفعل ذلك في ظل قانون الإصلاح التربويّ».